اشكالية العلاقة بين العيارين والشطار

والسلطة البويهية

٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ/٩٤٥ـ١٠٥٥م

د. موفق سالم نوري

جامعة الموصل ـ كلية الآداب

ملخص البحث :

تناول البحث حركة العيارين والشطار بوصفها ظاهرة اجتماعية لافتة للنظر احاطها الباحثون بقدر كبير من العناية ونعتوها بالمقاومة الشعبية المسلحة والثورة الشعبية التي تصدت للغزو البويهي، فعرض البحث لهذه الفرضية .وقد تم التوصل الى انه لم يكن للحركة اية ابعاد سياسية . وان هذه الفرضية انطلقت من قراءة ايديولوجية . وقراءة منهجية مخطئة لهذه الحركة ووقائع تاريخها . فهي لم تكن اكثر من فرز طبيعي لواقع اقتصادي سيىء عانى فيه الفقراء ظروفا قاسية الى حد كبير مع عدم وجود اية محاولات جادة وحقيقية لمعالجة هذه (الاوضاع) فكان من الطبيعي ان تتولد عن ذلك ردود فعل سلبية خطيرة تمثلت بحركة العيارين والشطار .

تمهيـــد :

لعل حركة العيارين والشــطار كانت من اكثر الحركـات الاجتماعيـة والظواهر التاريخية اثارة لاهتمام المعنيين قديما وحديثا . واذا كان القدامـى قد اتفقوا على نقد الحركة ونعتها باشنع النعوت . فان غالبية المحدثين راحـوا يكيلون لها الاوصاف التي تمجدها وترفع من شأنها . وممـا جاء في هـــذه التوصيفات : « كانت حركة العيارين والشطار خلال حقبة الغزو البويهي حركة مناهضة للتسلط الاعجمي بسياساته ومبادئه »[1] . و « انها تمثل ، دون شك وجها من وجوه المقاومة الشعبية للتعسف البويهي والتســلط الاعجمي »[2] . كما انها تمثل « ثورة ضد الاسياد السياسيين وضد اسياد المال »[3] . فضــلا عن كونها تمثل (حركات ثورية عنيفة) ضد (السلطة الاجنبية) و (التغاسب الاجنبي)[4] . كما انها مثلت « ادانة لهذا العصر وثورة على فئة محددة قـدر لها في ظروف سياسية وتاريخية معينة ان تستأثر لنفسها بالسلطة او المـال او بهما معا »[5] . وان الذين تعرضوا لهجمات العيارين والشطار من اصحـاب المال هم « بطانة السلطة »[6] . وهكذا انصب تقويم الباحثين لهذه الفئة علـى انها جسدت حركة ثورية شعبية خاضت نضالا عنيفا ضد السلطة الاجنبية وضد اصحاب الاموال ، وكان لسان حال هؤلاء الباحثين يقول ان حركة العيـارين والشطار مارست نضالا قوميا وطبقيا على طريقة الكفاح الشعبي المسلح . وهو ما يحسن التوقف عنده على ضوء المعالم الاتية :

(١) د. فاروق عمر فوزي ، النهوض العربي في العراق ١٠٠ .
(٢) المصدر السابق ، ١٠١ .
(٣) د. عبدالعزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتاخرة ، ٢٨٣ .
(٤) د. بدري محمد فهد ، العامة في بغداد ، ٢٨٦ ؛ طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق ، ٢٩٤ .
(٥) محمد رجب النجار ، حركة الشطار والعيارين ، ٩ .
(٦) طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق ، ٢٩٩ .

١ ـ إن جانبا من هذه التصورات بشأن الحركة استند الى قراءات مخطئة للنصوص وتحميلها ما ليس له صلة حقيقية بواقع الامر من ذلك القراءة التي قدمها احد الباحثين بشأن نص يتعلق باحداث عام (٣٦١هـ) اذ اضطربت الاوضاع في بغداد على اثر التدهور الذي اصاب منطقة الثغور مع الدولة البيزنطية، فلحقت الخسائر الفادحة بجانب المسلمين، فقد جاء في النص: « وفي هذه السنة وقعت في بغداد فتنة عظيمة، واظهروا العصبية الزائدة وتحزب الناس، وظهر العيارون واظهروا الفساد، واخذوا اموال الناس. وكان سبب ذلك ما ذكرناه من استنفار العامة للغزاة، فاجتمعوا وكثروا، فتولد بينهم من اصناف البنوية، والفتيان، والسنة، والشيعة، والعيارين، فنهبت الاموال، وقتل الرجال، واحرقت الدور وفي جملة ما احترق محلة الكرخ »(٧). فجاءت القراءة على النحو الاتي: « اذ نجد تفجيرا عارما في الوسط الشعبي، أوقع الخسائر الكبيرة في دور السلطة وممتلكاتها، بدأ هذا الانفجار داخل الحشود الجماهيرية المتطوعة لصد هجمات الروم على الجزيرة الفراتية، وهذا يعني أن العيارين كانوا ضمن فصائل الشعب المتطوعة للدفاع، الا ان تحسسهم بعدم جدية السلطة البويهية في اسناد موقف الشعب والتوائها لعوق هذا الموقف الجماهيري، حدا بهم (العيارون) لاستثمار هذا التجمع وتفجير الموقف داخليا لارهاق السلطة والاطاحة بها »(٨).

وبشأن احداث عام (٣٦٤هـ) جاء في نص آخر: « وتغلبوا بالقوم، واخذوا الخفائر عن الاسواق والدروب »(٩). فجاءت القراءة على النحو الاتي: « ويبدو انهم ارادوا ان يؤكدوا وجودهم السياسي وتحديهم للسلطة البويهية فاخذوا الضرائب من الاسواق والدروب »(١٠). ولا شك في ان مثل

(٧) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ٨، ٦١٩.
(٨) طالب جاسم حسن، المصدر السابق، ٢٩٧.
(٩) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ١٨٧.
(١٠) طالب جاسم حسن، المصدر السابق، ٢٩٧.

هذه القراءات ليست منهجية ، اغفلت الفهم الصحيح لمضامين النص الواقعية ودلالاتها الفعلية ، المستندة الى ما يعرف بالنقد الباطني الايجابي للنص فجاءت هذه القراءات أسيرة الفهم الايديولوجي للنص منكفئة على معطيات فكرية سابقة استهدفت رفع شأن الحركة الى مستوى النضال الوطني والقومي والطبقي .

ومما عزز هذا الامر الاعتماد على المنهج الانتقائي في تعاطي هذه الظاهرة التاريخية لتعزيز معطيات القراءة الايديولوجية لها . لذا ترى هؤلاء الباحثين يغفلون الاشارة الى وقائع تاريخية كثيرة تقدم فهما اخر للحركة ، ان غياب الموضوعية في مثل هذه المعالجات اسفر عن تصورات غير دقيقة بشأنها .

٣ ــ الانطلاق من وحدة تاريخ الحركة ، ذلك ان المعنيين بها ربطوا اولها بآخرها ، دون تمييز بين المراحل التي مرت بها . فقد لعبت هذه الحركة ادوارا مهمة في صراع الامين والمأمون فوقف أتباعها الى جانب الامين بوصفه يمثل الشرعية اولا وللدفاع عن مدينتهم ثانيا ، وكان ذلك في اواخر القرن الثاني للهجرة ثم وقفوا الى جانب المستعين في صراعه مع القادة الاتراك وللاسباب نفسها ، وكان ذلك في منتصف القرن الثالث للهجرة . اذ جاءت النصوص واضحة وصريحة في اشارتها الى ما بذله العيارون والشطار في كلا الموقفين ، اذ قاتلوا ببسالة الى جانب الخليفتين منافحين عن مدينتهم بغداد . اما ما حصل في القرنين الرابع والخامس للهجرة فهو امر مختلف تماما . عليه فان تقويم الحركة يجدر ان ينطلق من واقعها الفعلي في كل مرحلة وعدم احتساب بعض المراحل على بعضها الاخر ، فذلك ما يفقد التقويم مصداقيته ودقته . إن هذا التباين في طبيعة الحركة بين المرحلتين ، أي القرنين الثاني والثالث من جهة والرابع والخامس من جهة اخرى . ادركه بعض الباحثين ، بيد انه فسر ذلك على انه ناجم عن انشقاق اصاب الحركة ، فضلا عن العصابات التي استغلت

اسمها استغلالا سيئا لتحقيق مصالح فعية انانية ضيقة(١١) . غير ان هذا التفسير لا تدعمه اية نصوص او معالم من نوع ما ، ولا يصمد أمام اي نقد تاريخي منهجي ، فهو لا يعدو كونه محاولة لابعاد الشبهات عن الحركة والعمل على تحسين صورتها .

٣ ـ ومن المنزلقات الخطيرة التي يقع فيها عدد من الباحثين في معالجتهم للقضايا التاريخية . انطلاقهم من روح عصرهم ومن قضاياهم الفكرية الخاصة ثم اسقاط ذلك على الماضي ، وهو ما نبه عليه كروتشه عندما قال : (التاريخ كله تاريخ معاصر) وهو أمر يلزم الباحثين التحرر من المقومات الفكرية لعصرهم عند بحثهم ظواهر الماضي التاريخية ، هذا المنزلق وقع فيه الذين كتبوا في تاريخ العيارين والشطار ، فانطلقوا من الموجة اليسارية التي سادت في الساحة العربية لاربعة عقود من الزمن منذ منتصف القرن الماضي ، وترسخت مفاهيمها في ذاكرة الباحثين ومنها : الكفاح الشعبي المسلح والنضال الوطني من اجل الاستقلال والنضال القومي من اجل الوحدة والنضال الطبقي ضد الطبقات المستغلة وغيرها . مشكلة المناخ الفكري العام والسائد ، تشربه الباحثون ثم اسقطوه على موضوعاتهم التاريخية . لهذا نلمس في اثناء كلامهم روح الفكرة المعاصرة بل مفرداتها، عليه جاء تفسير حركة العيارين والشطار على اساس مشروعيتها (الثورية) مستبعدين المشروعية (الشرعية) من تقويم الحركة . تلك المشروعية التي كانت تحكم حركة التاريخ الاسلامي ، فالفقه الاسلامي ومعطياته الفكرية هي التي شكلت المجال الفكري لحركة هذا التاريخ . وفي هذا الاطار فان البويهيين لم يكونوا اجانب ولا هم غزاة ، بل مواطنون في الدولة الاسلامية ، حملوا معاني المواطنة ودلالاتها الشرعية ، عاشوا في كنف هذه الدولة ودانوا بدينها ، ولهم حق ممارسة الفعل السياسي في اطار الحياة السياسية الاسلامية . وهم باستيلائهم على السلطة كانوا

(١١) د. فاروق عمر فوزي ، المصدر السابق ، ١٠٠ .

(متغلبين) وليسوا غزاة اجانب ، وهذا التقويم لا يتضمن مديحا او ثناءا على فعلهم السياسي ، بل وضعه في اطار التعريف الشرعي الصحيح له . لان ذلك يساعد على فهم اية افعال او ردود افعال معاصرة على الاساس الشرعي ايضا . من ذلك ان فهم اية افعال مناوئة للبويهيين على اساس وطني قومي هو فهم منحرف عن الحقيقة لا يمت للواقع بصلة .

وهذا ما يمكن قوله بشأن اصحاب الاموال ، فالفقر الذي عاش فيه قطاع من العامة لا يسوغ (شرعيا) السطو على اموال الاخرين حتى وان قصروا في اداء الحقوق الشرعية المترتبة عليهم مثل الزكاة ، وهو ما حاول احدهم من خلاله تسويغ نشاطه ، بذريعة ان التجار لم يؤدوا ما عليهم من زكاة اموالهم ، وهم بذلك جعلوها عرضة لاصحاب الحاجة من فقراء ولصوص ، شاء ارباب الاموال أو كرهوا[١٢] . مع اننا من الناحية المبدئية لا نغفل العامل الاقتصادي الذي اسهم بشكل فعال في ظهور هذه الحركة . المتمثل بالتباين الكبير في الثروة بين الفقراء والاغنياء ، وسوء الاوضاع المعاشية لطبقة العامة[١٣] . ثم عجز الدولة عن القيام بواجبها في اقامة الاحكام الشرعية للدين الاسلامي وبما يوفر حياة آمنة كريمة لكل مواطن[١٤] . فكانت النتيجة الطبيعية فرز مثل هذه الحركة بكل تداعياتها السلبية ، فالمجتمع والدولة يتحملان وزر مثل هذه النتائج .

عوامل نمو الحركة وتوسع نشاطها :

مثلت حركة العيارين والشطار ظاهرة تاريخية متأصلة في الواقع الذي ظهرت فيه ، فهي بوجهها التقليدي العروف ظهرت منذ اواسط القرن الثاني للهجرة . وراحت في نشاطها بين مد وجزر ، ثم شهد النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة توسع الحركة اجتماعيا حينما استقطبت الى داخلها فئات جديدة،

---

(١٢) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ٢/١١٦ .

(١٣) د. عبدالعزيز الدوري ، المصدر السابق ، ٢٨٢-٢٨٣ .

(١٤) د. موفق سالم نوري ، العامة والسلطة في بغداد ، ٣٦-٣٧ .

كما انها نجحت في توسيع فعالياتها الى حد كبير وهو أمر اعجز السلطات الحكومية عن مقارعتها او مواجهتها . مما يعني ان عصر التغلب البويهي (٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ) شهد عوامل عديدة انتجت هذا التحول في فعاليات هذه الفئة ومن هذه العوامل :

ا ـ ضعف بنية السلطة السياسية واجهزتها :

في عام (٣٣٤هـ) خضعت الخلافة العباسية للتغلب البويهي ، والبويهيون من الديلم موطنها في جنوبيّ بحر قزوين . اخذت بالنمو والتوسع السياسي والعسكري حتى تمكنت من فرض نفسها قوة سياسية وعسكرية لا تقهر وترافق ظهورها مع الضعف السياسي الذي اصاب الدولة العباسية ومؤسسة الخلافة نفسها . وازاء ذلك نجح البويهيون في مد نفوذهم الى بغداد ، مما اسفر عن وضع سياسي لم تكن له سابقة مثيلة طوال اكثر من ثلاثة قرون ، وعلى الرغم من ذلك تمكنوا من فرض وجودهم السياسي والعسكري على الدولة ليصبحوا حكامها الفعليين واصبح الخليفة رهينة لاهوائهم ورغائبهم ، ووجوده رمزي ليس اكثر . ومع ان البويهيين فكروا منذ البدء بتغيير اوضاع الخلافة عن طريق اقصاء الخليفة العباسي والمجيء بخليفة علوي ، انهم عدلوا عن هذه الفكرة بعد ان اشير عليهم بخطل هذ الرأي وخطره عليهم انفسهم[١٥] . عندها فقط وافق البويهيون على ابقاء الخليفة العباسي في منصبه ، الذي بات مجردا من كل حول او قوة سياسية وليس له من دواعيهما اي شيء ، وبقي السلطان البويهي وحده صاحب النفوذ الحقيقي والسلطة الفعلية على كل المستويات ، ففقدت الخلافة هيبتها في النفوس ، ولاسيما تحت وطأة الممارسات التي قام البويهيون بها تجاه هؤلاء الخلفاء[١٦].

---

(١٥) الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبري ، ١١/٣٥٤–٣٥٥ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٨/٤٥٢ .

(١٦) انظر مثلا : ابن الاثير ، الكامل ، ٨/٤٥٢ ، ٩/٧٩ ؛ ابن الكازوني ، مختصر التاريخ ، ١٧٨ ، ١٩٤ .

غير ان هؤلاء البويهيين ، وبعد قرابة الربع قرن من وجودهم في السلطة في بغداد ، بدأ الضعف يتسلل الى كيانهم وسلطانهم ، وهو امر سمح بظهور نشاط العيارين وتوسعه بدءا من عام (٣٦١هـ) كما سيتبين تباعا . وفي عام (٣٧٦هـ) أخذت دولة بني بويه بالضعف بشكل جلي لافت للنظر[١٧] . وفي عام (٤٢٦هـ) انحل امر الخلافة والسلطنة ببغداد[١٨] اذ اخذت نذر السقوط تحيق ببني بويه من كل جانب . وبين هذين التاريخين كانت عوامل الصراع قوية ، تفعل فعلها داخل مكونات السلطة البويهية ، اذ ظهر ضعف الدولة واضحا في عام (٣٦١هـ) عندما عجزت عن مواجهة الخطر البيزنطي في مناطق الثغور ، فانعكس الامر على الاوضاع في بغداد نفسها[١٩] . ومن اوجه الصراع داخل هذه السلطة ما وقع بين بختيار (عز الدولة) وحاجبه سبكتكين من جفوة ، دفعت الاخير الى التمرد بالتعاون مع الجند الاتراك[٢٠] . وكانت وفاة أي سلطان بويهي فرصة للجند والغلمان للسلب والنهب واضطراب الاحوال[٢١] بل ان هؤلاء حاولوا التدخل في نصب كبار الشخصيات البويهية[٢٢] او عزلهم . لينالهم ما نال الخلفاء على ايديهم .

ومن المظاهر الاخرى لتدهور اوضاع السلطة تلك الفتن التي ثارت من وقت لاخر بين الجند الاتراك والجند الديلم[٢٣] . وقريب من ذلك ايضا شغب هؤلاء الجند على السلطات البويهية من اجل تحصيل رواتبهم التي كانت غالبا

---

(١٧) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٨٦/٣ .

(١٨) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ، ٥٨/٤ .

(١٩) الهمذاني ، تكملة ، ٤٢٨/١١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٦١٨/٨-٦١٩

(٢٠) الهمذاني ، تكملة ٤٣٢/١١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ١٣٤/٨ .

(٢١) انظر مثلا : ابن الجوزي ، المنتظم في اخبار الملوك والامم ، ١٤٦/٨ .

(٢٢) انظر مثلا : المصدر نفسه ، ٦٢/٨-٦٤ .

(٢٣) انظر مثلا : ابن الاثير ، الكامل ، ٤٩/٩ ، ٦٣ .

ما تتأخر عن موعدها بسبب العجز المالي الكبير ، او ان هذا الشغب كان يقع لاية اسباب سياسية اخرى . فقد تكرر هذا المشهد لمرات كثيرة[٢٤] . وكان من نتائجه ليس ضعف الاحساس بالسؤولية تجاه المجتمع وحسب ، بل تطور الامر الى قيام اجهزة السلطة بالاعتداء على ممتلكات المجتمع في بعض الاحيان[٢٥].

وازاء هذا التطور في بنية السلطة ومكوناتها ، وجد العيارون فرصتهم لممارسة نشاطهم في اعمال السطو والسلب والنهب ، وجاء اشارات عديدة الى الصلة المباشرة بين واقع السلطة هذا والتصعيد المتنامي لفعاليات العيارين والشطار ، كما حصل في احداث عام (٣٦٤هـ)[٢٦] . واحداث عام (٣٨٩هـ)[٢٧] واحداث عام (٣٩١هـ)[٢٨] . واحداث عام (٤١٦هـ)[٢٩] . ثم احداث عام (٤١٧هـ)[٣٠] . اذ انعكس الضعف المتزايد في بنية السلطة السياسية للدولة على اجهزتها المختلفة ، ولاسيما الامنية منها ، متسببا في ارتخاء الحالة الامنية في بغداد وربما انعدامها في بعض الاحيان ، موفرا المناخ الامثل ليمارس العيارون والشطار نشاطهم المعهود .

---

(٢٤) انظر مثلا : المصدر نفسه ، ٤٥٦/٨ ، ٤١/٩ ، ١٠٠ ، ٣٦٦ ، ٤٢٣ ، ٤٤٦ ، ٥٧١ ، ٥٩٧ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٣/٨ ، ٧٨ ، ٨٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، احداث الاعوام (٣٨١ـ٤٠٠هـ) ١٢ ، ١٥ .

(٢٥) انظر مثلا : ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٦/٨ ، ١٠٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ١٦٨/٩ ، ٣٥٣ ، ٦٢٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٧٣/١١ .

(٢٦) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ٣٥٥/٦ .

(٢٧) الصابي ، تاريخ هلال بن الحسن ، ٥/٨ـ٦ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ٧٦/٨ .

(٢٩) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ٢٠٤/٣ .

(٣٠) ابو الفدا ، المختصر ، ٤٢/٤

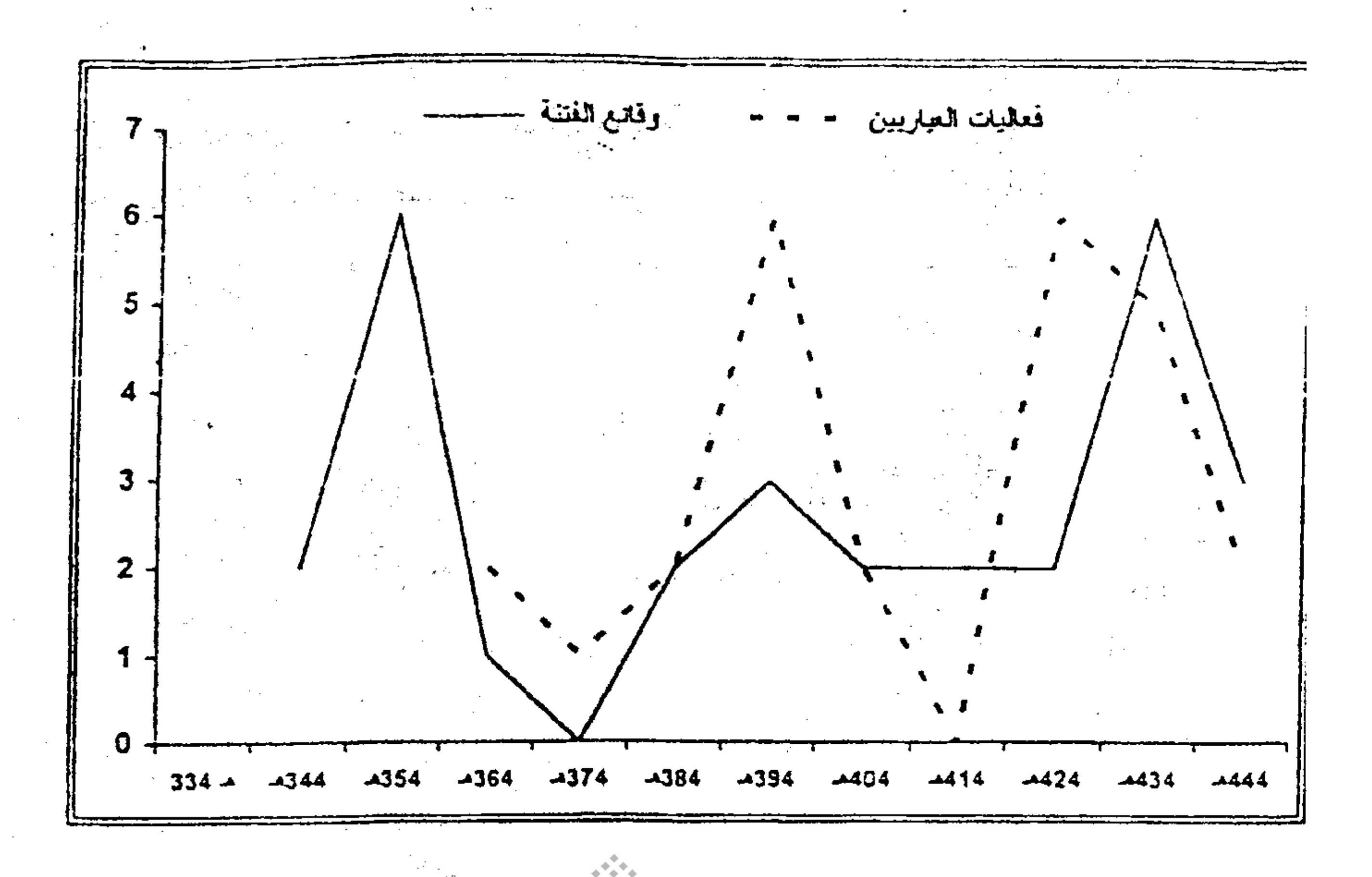
ب ـ الفتن والحروب الاهلية :

منذ السنوات الاولى لدخول البويهيين الى بغداد ، وجدت الفتنة الطائفية طريقها الى هذه المدينة التي نعمت بالامان قبل ذلك قرنين من الزمن ، فحصدت هذه الفتن اعدادا متزايدة من اهل بغداد وعامتها . ليشكل ذلك خللا فادحا في الحياة العامة للمجتمع ، خسر بسببه هذا المجتمع الكثير من ابنائه اولا ، ثم تدهور معالم الحياة المختلفة اقتصادية وامنية واجتماعية ، ليوفر ذلك المناخ الملائم ليمارس العيارون السطو والسلب والنهب . وقد اوردت المصادر اشارات عديدة الى الصلة المباشرة ايضا بين واقع الفتنة وفعاليات هذه الفئة وممارستها لنشاطها المذكور . ففي عام (٣٨١هـ) : « زادت الفتنة وتسلط اهل الدعارة فقلد ابو الفوارس بهستون بن ذرير الشرطة ونزل دار ابي الحسن محمد بن عمر التي على دجلة ، وقبض على جماعة من العيارين وقتلهم وكبس دورهم ومنازلهم »(٣١) . وجاء بشأن احداث عام (٣٩٢هـ) « عظمت الفتنة ببغداد بعد ان خرج ابو جعفر الحجاج عنها وزاد امر العلويين العيارين وقتلوا النفوس وواصاوا العملات »(٣٢) . وجاء بشأن السنة اللاحقة ايضا : « اشتدت الفتنة وانتشر العيارون والمفسدون »(٣٣) . كما جاء بشأن احداث عام (٤٢٢هـ) : « تجددت الفتنة ببغداد ... وكانت فتنة عظيمة ... ودخل العيارون البلد »(٣٤).

وربما لا يقدم المخطط الاتي تطابقا بين الحركة البيانية لواقع الفتنة ومثيلتها فيما يتعلق بالعيارين والشطار ، غير ان ذلك لا يعني انعدام صلة السبب والنتيجة بين الامرين بدلالة النصوص المتقدمة ، لان ظروف الفتنة تعني في كل الاحوال اضطراب حبل الامن ، وهو ما يتمناه العيارون والشطار ليمارسوا فعالياتهم المختلفة .

---

(٣١) الصابي ، تاريخ هلال ، ٥٧/٨ .
(٣٢) المصدر نفسه ، ١٠٥/٨ .
(٣٣) ابن الاثير ، الكامل ، ١٧٨/٩ .
(٣٤) المصدر نفسه ، ٤١٨/٩ .



مخطط بياني يشير الى وقائع الفتنة وفعاليات العياريين في بغداد

تم رسم المخطط في ضوء المعلومات المستقاة من المصادر التاريخية

بدأت الفتنة تجد طريقها الى المجتمع البغدادي منذ عام (٣٣٨هـ)[٣٥] ، لتشتد في احيان عديدة مخلفة وراءها اعدادا كبيرة من القتلى من كلا الطرفين المتحاربين ، فضلا عن حرائق مدمرة اتت على الاسواق والدور والممتلكات كما حصل في عام (٣٤٦هـ)[٣٦] . وقد شجع البويهيون هذه الاوضاع في بعض الاحيان ، كما وقع في عام (٣٥١هـ)[٣٧] . وفي فتنة عام (٣٥٢هـ) قتل من الناس

(٣٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٣٦٣/٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٢١/١١ .

(٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٢٧/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٣٤/١١ .

(٣٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧ـ٨ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٥١ـ٣٨٠هـ) ٨ .

خلق كثيرون ، ورافق ذلك انتهاب الاموال والممتلكات[٣٨] . وتكررت مثل هذه الاعمال في عام (٣٦١هـ) فكان القتل والنهب واسعين ، وكان دور العيارين بارزا في ذلك[٣٩] . ولم تهدأ الفتنة التي وقعت في عام (٣٨٢هـ) الا بعد تدخل الشرطة وقتل عدد من الاشخاص ، فسكنت الاوضاع[٤٠] . ولم تهدا الفتنة في عام (٣٩٨هـ) الا بعد أن زجت الشرطة بعدد من المفتنين اصحاب الفتنة في السجون[٤١] . وفي عام (٤٠٨هـ) تطورت الاحوال بأن اقام اصحاب المحال السكنية الابواب والاستحكامات على دروبهم[٤٢] . وفي عام (٤٤١هـ) تحول الامر الى اقامة الاسوار والتحصينات حول الاحياء السكنية[٤٣] . وفي عام (٤٢٢هـ) كانت الفتن عديدة تكرر وقوعها بين شهر واخر ، تمتع العيارون خلالها باجواء مثالية لممارسة نشاطهم[٤٤] . اما في عام (٤٥٢هـ) كانت الفتنة عادية ، بدا ان الجديد فيها هو اقتتال العيارين فيما بينهم ، كل فريق منهم متحزب لطائفة التي ينتمي اليها[٤٥].

ج ـ تدهور الاوضاع الاقتصادية :

ما ان وضع البويهيون اقدامهم على ارض بغداد حتى بدأ الغلاء يظهر في اسواقها ، فبلغ عدد حالات الغلاء خلال عصر التغلب البويهي اكثر من خمس عشرة حالة ، وهو امر ان دل على شيء ، فانما يدل على اضطراب كبير في

(٣٨) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٥٨/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٥٣/١١ .
(٣٩) ابن الاثير ، الكامل ، ٦١٩/٨ .
(٤٠) نفسه ، ٩٤/٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٨١ـ٤٠٠هـ) ١٣ .
(٤١) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٠٨/٩ .
(٤٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٨٧/٧ .
(٤٣) نفسه ، ١٤٠/٨ـ١٤١ .
(٤٤) ابن الاثير ، الكامل ، ٤١٨/٩ .
(٤٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٦/١٢ .

الاحوال الاقتصادية والمعيشية للبلاد ، وانعدام حالة الاستقرار الاقتصادي فيها ، لينعكس ذلك بدوره على اضطراب الحياة الاجتماعية ، فالكثير من جوانب السلوك الفردي او الجمعي على حد سواء مرتهن بطبيعة الاوضاع الاقتصادية ، فاذا ما تردت هذه الاوضاع وتدهورت ، فان ذلك سيولد سلوكيات اجتماعية مضطربة ومنحرفة ومتطرفة ، وذلك له مردوده على طبيعة العلاقات بين الطبقات الاجتماعية ، اذ يصوب المعدمون ابصارهم ناحية اموال الاغنياء والاثرياء واجدين فيها فرصة مواتية لاشباع حاجاتهم التي حرموا منها تحت ضغط الفقر والبؤس .

ومن اقسى حالات الغلاء التي واجهت اهل بغداد ما وقع في عام (٣٣٤هـ) ، فاضطر الناس الى اكل الميتة ، والكلاب والسنانير ، وبعض النباتات الطبيعية ، مسببة لهم اضطرابات صحية خطيرة ، بل ثمة كلام يشير الى ان بعضهم اكل لحم البشر لسد جوعته[٤٦] . وفي عام (٣٦٤هـ) ارتفعت الاسعار ارتفاعا كبيرا وانعدمت الاقوات من السوق وبيع الكر (= ٢٧٠٠ كغم) من الدقيق بـ (١٧٥) دينارا[٤٧] . وبعد ذلك بعشر سنوات غلت الاسعار مرة اخرى فكانت مجاعة (عظيمة) وبلغ كر الحنطة ثلاثة الاف درهم والكر الشعير الفي درهم ، حتى مات الناس على الطرق[٤٨] . وذلك ارتفاع هائل في الاسعار مقارنة بالغلاء السابق ، وفي غلاء عام (٣٧٧هـ) اضطر الناس للرحيل عن بغداد[٤٩] . وفي غلاء عام (٣٨٢هـ) بيع رطل (= ٤٠٦/٢٥ غم) الخبز باربعين درهما[٥٠] . وفي عام (٣٩٧هـ) تسبب الغلاء في شغب الجند وفتنة العامة في

(٤٦) الهمذاني ، تكملة ، ٣٥٧/١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٤٦٥/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢١٣/١١ .
(٤٧) الهمذاني ، تكملة ، ٤٣٩/١١ .
(٤٨) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٢١ .
(٤٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٣٦/٧ .
(٥٠) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٤٥ ؛ الذهبي ، حوادث الاعوام ، (٣٨١-٤٠٠هـ) ١٣ .

بغداد[٥١] . وفي عام (٤٣٩هـ) جاء الغلاء والوباء معا ليحصدا اعدادا كبيرة من الناس حتى خلت الاسواق منهم[٥٢] . ثم تكرر ذلك في العام اللاحق ايضا[٥٣].

ان اجواءا من هذا النوع تسببت ، بدون ادنى ريب ، في تهيئة الظروف الملائمة ليمارس العيارون نشاطهم في السلب والنهب والسطو على الاموال والاقوات وغير ذلك . فوجدوا في اوضاع الغلاء دافعا لا يرد ومسوغا اضافيا لزيادة حجم نشاطهم .

انشطة العيارين وفعالياتهم :

إن اي تقويم حقيقي لحركة العيارين والشطار ، لابد ان ينطلق من احد امرين او كليهما معا : فاما معطياتها الفكرية او معطياتها التاريخية من افعال وممارسات ووقائع ، وبما ان المعطى الاول منعدم كليا ، لان المنتمين الى الحركة والعاملين فيها او معها ابعد ما يكونون عن امتلاك ناصية الفكر ودواعيه لضحالتهم الاجتماعية والثقافية ، فعجزوا عن التعبير الثقافي عن وجودهم او بيان مقاصدهم واهدافهم ، بل ان ذلك لم يعنهم في شيء . لذا لم يبق امامنا سوى استقراء الواقع واستقصائه لتبين طبيعة هذه الحركة ومن ثم اهدافها وغاياتها الحقيقية ، وذلك السبيل الوحيد لاي باحث في هذه الظاهرة .

من الملاحظ ان المصادر التاريخية ، وهي تعالج اوضاع هذه الفئة ، غلب عليها استخدام تسمية العيارين . وهذا يجب ان لا يقود الى الاعتقاد ان ثمة فرقا او تمييزا بين العيارين والشطار ، فالاسمان يدلان في الواقع على مسمى واحد ، بل ان لهذا المسمى اسما ثالثا هو : الفتوة او الفتيان ، اذ ورد في قول

---

(٥١) ابن الاثير ، الكامل ، ٢٠٤/٩ .

(٥٢) نفسه ، ٥٤١/٩ ؛ انظر ايضا : ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٣٢/٨ .

(٥٣) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٥٢/٩ .

شاعر يصف افعال العيارين والشطار ابان الصراع بين الامين والمأمون ، وما أبلوه من بلاء حسن في التصدي لقوات طاهر بن الحسين ، فقال الشاعر :

ويقول الفتى اذا طعن الطعـ نة خذها من الفتى العيار(٥٤)

كما ان القشيري (ت ٤٦٥هـ) استخدم هذه التسميات الثلاث بعضها مرادف لبعض دالة على مدلول واحد(٥٥) . على انه لابد من ادراك ان مدلولات الفتوة في هذه المرحلة هي ليست ذات مدلولاتها كما ظهرت في مرحلة لاحقة ابان خلافة الناصر لدين الله ، ولاسيما من الناحية الحركية التنظيمية ، اذ تراجعت تسمية العيارين والشطار لتحل محلها كليا تسمية الفتوة دالة على معان وافكار جديدة ، وان كانت هذه قد انبثقت من رحم تلك .

وقد توسعت حركة العيارين والشطار في عصر التغلب البويهي (٣٣٤هـ ـ ٤٤٧هـ) هذا توسعا كبيرا سواء في حجمها وتنظيمها او في طبيعة اعمالها وانشطتها ، ومن ملامح هذا التوسع ان اشرافا من العباسيين والعلويين انضموا الى هذه الفئة ، وشاركوا في انشطتها(٥٦) . وجاء ذلك تحت ضغط الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي اصابت هؤلاء ، ويوصف ذلك من نتائج التغلب البويهي الذي رافقه سوء السياسة والادارة(٥٧) . وبلغ من اتساع قاعدة هذه الفئة ان قال المقدسي (ت ٣٧٥هـ) بشأنهم في اطار حديثه في اهل بغداد وظرفهم ، فلما بلغ الكلام بشأن العيارين قال : « اذا تحركوا ببغداد هلكوا »(٥٨) . يريد بذلك اهل بغداد وما يصيبهم من اذى كبير بسبب الفعاليات الواسعة للعيارين المتأتية من كثرة عددهم ، ثم قال واصفا جولاته

---

(٥٤) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ١٧٥/٨ .

(٥٥) الرسالة القشيرية ، ١٧٩ .

(٥٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٢٠/٧ ؛ الذهبي ، العبر ، ١٧٨/٢ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٠/١١ .

(٥٧) د. عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، ٩٣ .

(٥٨) احسن التقاسيم ، ١٣٠ .

ورحلاته ومشاهداته في اثنائها : « ورأيت دول العيارين »[٥٩] • كناية عمـا بلغوه من سطوة هائلة ونفوذ كبير وتحكم في الاحوال العامة في بغداد وغياب السلطة الرسمية ، فظهروا وكأنهم هم الحكام ، هذا مع العلم ان المقدسي توفي قبل ان يرى ما هو اعظم مما رآه في عصره ، وهو ما سنبينه تباعا •

وتباينت الاراء بشأن تقويم الجانب الاخلاقي لهذه الفئة ، فهم في افعالهم كانوا قد اظهروا جانبا من الامانة والتعاون والكرم ورعاية النساء ومساعدة الفقراء والضعفاء واظهروا الشجاعة والصبر وتحمل الصعاب[٦٠] • وبلغت الشهامة ببعضهم انه رفض تسليم غلام مطلوب لـدى السلطات ، وتحمل ان يضرب الف سوط (كذا) على ان يفعل ذلك[٦١] • وامتحن احد وجوه العيارين في اخلاقه بان بيعت له جارية على انها غلام ، وكانت ذات جمال وبهاء ، فلبثت عنده عدة شهور ، فلما سئلت عن حاله ، ردت انه لم يعرف انها جارية لانه لـم يمسها اصلا لاعتقاده انها غلام وانه لا يجوز اتيانه[٦٢] • ومـن ناحية اخـرى فان الوقائع كشفت احيانا عن سلوكيات مخالفة فيها اعتداء حتى على النسـاء من فعل الفواحش والمحرمات ، وقد جاء في قصة احد هؤلاء يعرف بـ (ابـن الحراصة) كان مظهرا « للقمار والعيارة والفجور وبيع الخمور وتأوي اليـه اللصوص » ولا يستطيع احد ان ينكر عليه في ذلك لصاته باحد قادة الجنـد الديلم وحمايته له مقابل ضمان الفي درهم في كل شهر ، فاذا عجز عن السداد اخذ كل من اجتاز بداره مستوليا على ما معه من مال[٦٣].

---

(٥٩) نفسه ، ٤٥ .

(٦٠) التوحيدي ، المقابسات ، ٩٦ ؛ ابن الجوزي ، الاذكيـاء ، ١٩٦–١٩٨ ؛ تلبيس ابليس ، ١٩٢ .

(٦١) القشيري ، الرسالة القشيرية ، ١٧٩ .

(٦٢) نفسـه .

(٦٣) التنوخي ، نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، ٣٤٩/١ .

وهم مهما حاولوا اظهارت من خلق ، فان ذلك لم يقنع المجتمع بسبب ما الحقوه بحياة الناس من اذى كبير ، اذ سخر ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) من فتوتهم التي غالبا ما كانت تنتهي بسلب الناس اموالهم وممتلكاتهم ، فضلا عن رعبهم وافزاعهم(٦٤) . كما قال التوحيدي (ت ٤١٤هـ) بشأنهم : « وهذا الرهط نيس لاحد فيهم اسوة ، ولا هم لاحد قدوة ، لغلبة الباطل عليهم ، وبعد الحق عنهم ، ولان الدين لا يلتاط بهم ، والفتوة التي يدعونها بالاسم لا يحلون بها في الحقيقة ، كيف تصبح فتوة اذا خالفها الدين ؟ »(٦٥).

وما الواضح ان تقويم التوحيدي وابن الجوزي لاخلاقيات هذه الفئة لم ينطلق من حيثيات وجودها ، بل انطلق من التصور الاسلامي الذي يرفض معالجة الخطأ بخطأ اخر مقابل . وفي الوقت نفسه لم نجد في ادبيات العصر اية معالجة شرعية لطبيعة الاوضاع التي انتجت هذه الفئة ، وربما انطلق المعنيون من الاكتفاء بالتصور العام ان اقامة الشريعة الاسلامية كفيل وحده بمعالجة اي خلل في حياة الامة . على ان احدا لم يعمل جهده في البحث عن الاليات الشرعية التي تمكن من اقامة الشريعة بالشكل الذي يعالج الخلل الحاصل في بنية الحياة العامة للامة .

أن فعاليات وانشطة العيارين والشطار لم تكن نشاطا واحدا متصلا على طول هذا العصر ، بل جاء نشاطهم على شكل موجات ، تراوحت كل موجة بين خمس الى عشر سنوات ، تفصل بينها ايضا اوقات من تراجع هذا النشاط تراوحت هي الاخرى عموما بين خمس سنوات وعشر ، وعلى النحو المتتابع الاتي :

---

(٦٤) تلبيس ابليس ، ١٩٢ .

(٦٥) رسالة الصداقة والصديق ، ٤٨ .

ا ــ عقد الستينيات من القرن الرابع للهجرة :

بدا اول نشاط الافت للنظر مارسه العيارون عام (٣٦١هـ) على خلفية التداعيات المترتبة على تدهور اوضاع المسلمين في مواجهة الدولة البيزنطية وهو أمر الح كثيرا على مشاعر المسلمين ، ذلك ان اية انتكاسة تصيب قوة الدولة الاسلامية في مناطق الثغور كانت تذكر المسلمين بأيام عزهم ومجدهم في مواجهة الاخطار الخارجية ، ثم تجري المقارنة بما آل اليه الحال ، فيبعث ذلك فيهم الغيرة والحمية ، واول مكان كانت تظهر فيه اصداء هذه التحولات هو بغداد بوصفها عاصمة المسلمين وحاضرتهم المنيعة ، فقد استفزت اخبار مناطق الثغور مشاعر البغداديين ووجدوا ان ما حصل في ذلك العام كان مهينا للمسلمين ولدولتهم ، فبدأت حالة من الاستنفار والتجمع في بغداد طالب فيها جمهور الناس بالجهاد واتخاذ الاجراءات المناسبة لصد الخطر البيزنطي ، وقد اعلن كثير من الناس تطوعهم للقتال وطالبوا بتوفير المستلزمات المادية التي تمكنهم من القيام بهذه الفريضة . ولما تبين ان السلطات الرسمية لا تعير الامر الجدية اللازمة ، عليه اخذ الامر بالتداعي بشكل خطير ، من ذلك ان ملامح العصبية بدأت تحيق بالمكان ، ما لبث ان تطورت الى فتنة طائفية ، انتهزها العيارون لممارسة نشاطهم فـ « اظهروا الفساد ، واخذا اموال الناس »(٦٦).

واظهرت هذه الواقعة ضعف السلطة وهشاشة بنيتها ، وانها غير قادرة على الضرب بقوة ، لا في الداخل ولا في الخارج ، لهذا تجد العيارين قد واصلوا نشاطهم في عام (٣٦٢هـ) على خلفية ما حصل في العام السابق ، مما اضطر بختيار (عز الدولة) للقدوم الى بغداد من اجل تسكين الاوضاع فيها والسيطرة عليها غير ان التفاقم زاد في « استولى العيارون والشطار على بغداد وكبسوا الدور وتعرضوا للحرم » حتى اصبح هؤلاء سادة الموقف في الشوارع والطرقات والمحال ، فغاب الامن وغاب القانون عليه ، هنا افادت بعض الروايات ان هذا

(٦٦) ابن الاثير ، الكامل ، ٨/٦١٩ .

التدهور اضطر للسلطات الى القاء النار في الجانب الغربي من بغـداد ، حيث احترقت مساحات واسعة ما ذلك الكرخ ، بل ومُنع الناس من القيام بايـة اعمال اطفاء للحرائق، فتأججت النيران «فاخذت يمينا وشمالا فاحرقت الوفا من الناس والبهائم وكان يوما عظيما لم يجر في الاسلام مثله » ثم اعطت السلطات الامان للعيارين فسكنت الاوضاع(٦٧) . وفي رواية ثانية ان الوزير ابي الفضل الشيرازي ، ارسل الحاجب صافي لمساعدة صاحب الشرطة في التهدئة ، ولمـا كان هذا الحاجب مبغضا لاهل الكرخ ، لذا امر بالقاء النار في سوق النحاسين لتمتد بعد ذلك الى المناطق الاخرى(٦٨) . الا ان تأمل الاحداث والقرائن يبعث على الشك في قبول هذه الروايات ، اذ ليس من مصـلحة السلطات ، وهـي المسؤولة عن توفير الامن للناس والحماية لممتلكاتهم ، ان تقوم بهذا العمل ، اما العيارون فهم جهة ليست مسؤولة ، ويمكن لتصرفاتها ان تكون هي الاخرى غير مسؤولة ، مع توافر الاستعداد للقيام بسلوك غوغائي منفلت ، وهو امــر يصرف الشكوك باتجاههم ، ولاسيما ان وقائع مماثلة حصلت في الســنوات اللاحقة اكدت المصادر نسبتها اليهم ، فقاموا مثلا في عام (٣٦٣هـ) بالافسـاد الواسع في البلد ، ونهبوا الاموال(٦٩) . وقال سبط ابن الجوزي بهذا الشأن : « وكثرت الفتن وكبت المنازل واحترق الكرخ ثانيا »(٧٠) . وقوله (كبـت المنازل) لا معنى له الا اذا كان ذلك تحريفا او خطأ طباعيا والصواب هـو (كبست المنازل) وهو التعبير الذي درجت المصادر على استخدامه لوصـف عمل العيارين ، وعليه فان سياق الخبر يبين ان العيارين هـم المعنيون بالحريق الذي اشتعل في عام (٣٦٣هـ) . وقد شهد هـذا العـام قتل عـدد من هؤلاء وصلبهم(٧١) . اسفر عن هدوء وسكون نسبيين في بغداد .

---

(٦٧) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٧٨ .
(٦٨) الهمذاني ، تكملة ، ١١/٤٢٩ .
(٦٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٥ .
(٧٠) مرآة الزمان ، ١٨٣ .
(٧١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٥ .

في عام (٣٦٤هـ) كان ثمة صراع داخل اجهزة السلطة لدواعي مذهبية وطائفية وهو ما ادى الى ان « زادت ضراوة العيارين وعاد الفساد وخاف التجار على انفسهم واموالهم »[٧٢] . وهنا نود ان نشير الى ان التجار كانوا الهدف الرئيس لحملات العيارين في حين اذ ذلك لم يشمل اصحاب الحرف والمهن[٧٣] . وفي غضون ذلك اشعل العيارون حريقا ثالثا في بغداد في اواسط شهر المحرم ابتدأ بسوق الخشابين ثم توسع ليمتد الى سوق الجزارين واصحاب الحصر (الحصير) وهو امر نجم عنه خسائر فادحة[٧٤] . غير ان الامر لم يقف عند هذا الحد ، فأية ظاهرة اجتماعية تبدأ بسيطة عادة ، الا ان استمرارها وتكرارها يضفي عليها ابعادا جديدة . فقد شهدت هذه السنة زيادة امر العيارين « حتى ركبوا الدواب وتلقبوا بالقواد وغلبوا على الامور واخذوا الخفائر عن الاسواق والدروب »[٧٥] . وهو ما يعني حيازتهم على اموال عريضة تكفيهم لتجهيز انفسهم بهذه الطريقة ، وانهم باتوا منظمين ، فوجود قادة بينهم يعني انهم كانوا على مراتب ، وان تنظيمهم هذا كان هرميا يمكنهم من اصدار الاوامر وتنفيذها وبما يزيد في فاعلية نشاطهم ، وعكس ذلك من ناحية اخرى الضعف الكبير الذي انتاب السلطات الامنية حتى غابت عن الاسواق ، فتولى العيارون حمايتها مقابل مقادير من الاموال تجتبى منها .

وقد ذكر التوحيدي القادة الذين افرزتهم هذه الاحداث ومنهم : ابن كبرويه وابو الدود وابو الذباب واسود الزبد وابو الارضة وابو النوابح .

---

(٧٢) ابن مسكويه ، تجارب الامم ، ٦/٣٥٥ .

(٧٣) التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ٢/١٠٨ .

(٧٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٥١–٣٨٠هـ) ٢٧٥ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٨٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/١٠٧ .

(٧٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/١٠٧ .

وكان هؤلاء يقودون الغارات واعمال السلب والنهب واشعال الحرائق ، حتى تعذر احيانا وصول الماء الى نواحي من بغداد[٧٦] . واوردت المصادر قصة احد هؤلاء القادة (كذا) وهو اسود الزبد ، الذي كان عبدا اوى الى قنطرة الزبد من قناطر بغداد ، عاش عريانا لا يكاد يستر عورته الا خرقة رثة من قماش ، كان يجمع النوى ويستطعم من قصد المكان للعب واللهو ، وبقي على ذلك سنوات لا يؤبه له ، لكن ما شهدته تلك السنة من احداث واسعة النطاق من سلب ونهب وهرج ومرج ، فبصر هذا العبد ووجد من هو اضعف منه قد اخذ سيفا وتقوى به على السرقة ، فطلب هو ايضا سيفا واشترك في السلب والنهب ، حتى ظهر منه ما لم يكن بحسبان احد ، واصبح صاحب مال كثير ، ثم وجد نفسه مقدما في اصحابه فـ « صَبُحَ وجهه وعَذُبَ لفظه وحَسُنَ جسمه » هنا جعله اصحابه قائدا عليهم واطاعوه وفرق فيهم الاموال ليصبح بعد ذلك رئيسا فيهم[٧٧] . وبلغ من سعة حاله ان اشترى جارية بالف دينار لكنها تمنعت منه واظهرت كراهته ، فاعتقها ومنحها الف دينارا ايضا مظهرا فتوته وسماحته[٧٨] .

ان الاضطرابات الواسعة التي وقعت عام (٣٦٤هـ) اضطرت الى استدعاء احد القادة (ابو تغلب) الى بغداد لضبط الامن فيها ، فقتل جماعة من العيارين والشطار[٧٩] . وربما تسبب ذلك في تفريق شأنهم ، حتى ان اسود الزبد نفسه رحل الى الشام ومات فيها[٨٠] . وهكذا انتهت هذه المرحلة من نشاط العيارين

---

(٧٦) الامتاع والمؤانسة ، ٣/١٦٠ .

(٧٧) نفســـه .

(٧٨) الهمذاني ، تكملة ، ١١/٤٣٥ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٩ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٥١ـ٣٨٠هـ) ٢٥٧ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ١٨٧ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/١٠٨ .

(٧٩) الهمذاني ، تكملة ، ١١/٤٣٥ .

(٨٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٧٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٢٧٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ٤/١٠٨ .

في بغداد لتستقر الاوضاع فيها قرابة خمس عشرة سنة ، التي ربما لم تخل من انشطة صغيرة متفرقة لكنها لم تبلغ مستوى السنوات السابقة في الفاعلية والتأثير .

ب ـ عقد الثمانينيات من القرن الرابع للهجرة :

في عام (٣٨٠هـ) اشتدت الفتنة في بغداد بين اهل باب البصرة واهل الكرخ وامتدت هذه الفتنة الى العيارين انفسهم الذين كانت سطوتهم قد امتدت الى جانبي بغداد ، وصار لكل فريق منهم (امير) وفي كل محلة (متقدم) منهم فزاد اذاهم على الناس ، لقد افتتن العيارون بينهم حتى احرق بعضهم محال بعض[٨١] . ولم تجسر السلطات على الدخول بينهم[٨٢] . ثم جرى تعيين ابي محمد بن مكرم الحاجب على السلطة ، واتسمت سياسته بالشدة الكبيرة تجاه هذه الفتنة ، فهرب من هرب وقبض على كثيرين منهم ، فاستقامت الامور ، ثم استعفى بعدها من منصبه[٨٣] .

في اوائل عام (٣٨١هـ) غادر بهاء الدولة بغداد ، مخلفا وراءه نوعا من الفراغ الامني فـ (كثرت فتن العيارين) حتى تحاربوا بينهم كل يتعصب لمحلته ودربه ، فأعيا ذلك السلطات القائمة ، واستمرت عمليات السلب والنهب وتعاقب على منصب (صاحب المعونة) عديدون عجزوا عن القيام بعمل حقيقي لاحد من اعمال العيارين[٨٤] . الا ان عودة بهاء الدولة الى بغداد غير مجرى الامور اذ جرى تتبع هؤلاء وقتلهم ، فسكنت الاحوال مرة اخرى وكان في جملة من قبض عليهم من العيارين قائد لهم يدعى (ابو جوامرد) كانت

---

(٨١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٥٣/٧ ؛ الذهبي ، تاريخ الاسلام ، حوادث الاعوام (٣٥١ـ٣٨٠هـ) ٤٨٧ .

(٨٢) سبط ابن الجوزي ، مرآ الزمان ، ٢٣٧ .

(٨٣) ابو شجاع ، ذيل تجارب الامم ، ١٨١ .

(٨٤) نفسه ، ١٨٧ .

السلطات تستعين به لحراسة الاسواق في ايام (صمصام الدولة) فاطلقه بهاء الدولة ليستمر في عمله هذا[٨٥].

وفي عام (٣٨٤هـ) تفاقم نشاط العيارين وقادهم زعيم يدعى عزيز البابصري من اهل باب البصرة ، التف حوله عدد كبير من هؤلاء الاتباع ومن اهل الفساد ومما ميز فعالياتهم في هذه السنة اشعالهم النيران في المحال والدروب ، بل انهم نجحوا في تتبع رجال الشرطة لقتلهم ، كما انهم قاموا مرة اخرى بفرض الضرائب على الاسواق وجباية وارداتها ، ومدوا نشاطهم هذا ليشمل السفن في دجلة فارضين على اصحابها الضرائب ، ثم اشتدت الحملة عليهم ، فهربوا وتفرقوا[٨٦] ويعتقد ابن كثير ان القصص التي قيلت في احمد الدنف وما شاع عنه من حيل كان المعني بها البابصري او احد اتباعه[٨٧] . ودون سبب حقيقي ظاهر خفت نشاط العيارين مرة اخرى خمس سنوات ، ليظهر من جديد في عام (٣٨٩هـ) .

ج ـ عقد التسعينيات من القرن الرابع للهجرة :

بدأت الموجة الثالثة من انشطة العيارين في عام (٣٨٩هـ) اذ تمت الاستعانة بهم في تصفيات داخل جهاز الحكم[٨٨]. مما يشير الى تفاقم وجودهم من جديد ، وفي عام (٣٩٠هـ) بات خطرهم كبيرا ، اذ لم يكتفوا بكبس بيوت الناس ليلا ، بل فعلوا ذلك (نهارا جهارا) فأخذوا الاموال وقتلوا الناس وصارت شوكتهم قوية ، لينضم اليهم علويون وعباسيون . ثم عين (بهاء الدولة) عميد الجيوش لتدبير امر العراق والحد من نشاط العيارين ، فطاردهم

---

(٨٥) السابق ، ١٩٩ .

(٨٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٧٤/٧ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ١٠٦/٣ .

(٨٧) البداية والنهاية ، ٣١٢/١١ـ٣١٣ .

(٨٨) الصابي ، تاريخ هلال ، ٥/٨ـ٦ .

وقبض على جماعات منهم ، واعمل فيها القتل والتغريق ، لهذا سكن الامر بعض الشيء[٨٩] . بعدها تجددت الاضطرابات مرة اخرى في العام اللاحق[٩٠] .

وفي عام (٣٩٢هـ) كان الامر فادحا ، ففي شهر رمضان زاد نشاط العيارين من العلويين ، فواصلو (العملات) واخذوا اموال الناس[٩١] . وكان الامر يزداد سوءا يوما بعد يوم ، حتى انهم نجحوا في كبس دار احد المسؤولين ، وهو الناظر في ديوان المواريث وبعض الشؤون المالية ، لكن هذا لم يكن موجودا في بيته ؛ كما انهم قتلوا بعض المسؤولين والوجوه[٩٢] . وامام هذه المخاطر الكبيرة اضطر اعيان بغداد للهرب من مدينتهم الى البطيحة ـ اهوار ـ والكوفة وغيرهما للخلاص بانفسهم واموالهم ، فاعيد عميد الجيوش مرة اخرى الى بغداد ، وازاء ذلك هرب الكثير من العيارين والشطار ، فجد في طلبهم ولاسيما العباسيين والعلويين منهم ، وكان يقرن العباسي بالعلوي ثم يغرقهما في النهر بمشهد من الناس ، ونجحت هذه السياسة المفرطة في القسوة في تحقيق نوع من الهدوء في بغداد[٩٣] . وما ذكره ابن الاثير بشأن احداث تتعلق بعام (٣٩٣هـ)[٩٤] . نعتقد انه يعود الى العام السابق لتشابه الاحداث بين ما ذكرته المصادر بشأن عام (٣٩٢هـ) وما ذكره هو بشأن عام (٣٩٣هـ) وهو العام الذي لم تشر المصادر الى اية احداث قد وقعت فيه ، وفي الوقت نفسه لم يشر ابن الاثير من جانبه الى ما وقع في عام (٣٩٢هـ) .

---

(٨٩) الذهبي ، العبر ، ١٧٨/٢ .

(٩٠) الصابي ، تاريخ هلال ، ٧٥/٨-٧٦ .

(٩١) نفسه ، ١٠٥/٨ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢١٩/٧ .

(٩٢) الصابي ، تاريخ هلال ، ١١٥/٨ .

(٩٣) نفسه ، ١٠٧/٨ ؛ ابن الجوزي ، المنتظم ، ٢٢٠/٧ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٦٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٣٠/١١ .

(٩٤) الكامل ، ١٧٨/٩ .

بعد ذلك لم تذكر المصادر شيئا من فعاليات العيارين حتى عام (٣٨٠هـ) الذي تجدد فيه نشاطهم ، فطاردتهم الشرطة وشردتهم لتهدأ الاحوال مرة اخرى[٩٥] مدة عشر سنوات ، تجددت بعدها فعاليات العيارين في عام (٤٠٨هـ) وفيها اسرفوا في تتبع اموال الناس والسطو عليها[٩٦].

د ـ احداث الاعوام (٤١٥ـ٤٢٨هـ) :

وهي اطول مرحلة اتصل فيها نشاط العيارين ، ومثلت في الوقت نفسه ذروة نشاطهم ، بدأت فيها الاضطرابات في شهر رجب من عام (٤١٥هـ) وتواصلت حتى نهاية عام (٤١٦هـ) . بدأت الاحداث على شكل فتنة بين العيارين والعامة من جهة والجند الاتراك من جهة اخرى ، قام فيها الجند باحراق محلة طاق الحراني انتقاما من اهلها ، وفي غضون هذه الاحداث احرق العيارون دار الشريف المرتضى ونهب ما تبقى منها ، ومما ميز عملياتهم ايضا نهبهم الدور في وضح النهار ، اما عملياتهم الليلية فجرت تحت اضواء المشاعل ، دون اي تكتم ، متحدين الشرطة ، فكانوا يدخلون على الرجل من اصحاب الاموال مطالبين اياه باستخراج ما عنده من اموال وذخائر مستخدمين الضرب في ذلك . فيستغيث الرجل ولكن لا مغيث ، كما انهم مارسوا القتل دون رادع ولا وازع ثم اشتد عداؤهم للجند الاتراك ، ولم يكن لاصحاب الشرطة من بد الا ترك البلد ، فاضطر الناس الى وضع الابواب على الدروب وكانت تغلق ليلا ، للحؤول دون اقتحام العيارين لها ، الا ان ذلك لم يغن شيئا[٩٧] . ويبدو ان وفاة (شرف الدولة) في هذه السنة كانت فرصة طيبة لتأجيج الفوضى والاضطراب

---

(٩٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٢٣٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١١/٣٣٨ .
(٩٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧/٢٨٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/٦ .
(٩٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٢٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/١٩ ؛ انظر ايضا : ابن الاثير ، الكامل ، ٩/٣٤٩ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٢٨ ؛ الذهبي ، العبر ، ٢/٢٣٠ ؛ ابن العماد ، شذرات ، ٣/٢٠٤

بوجه السلطات[٩٨] . وهو ما رافقه ايضا الصراع داخل اجهزة السلطة نفسها حول المناصب والمصالح .

وفي مطلع عام (٤١٧هـ) وصلت بغداد فرقة من الجند (الاصفهلارية) لحفظ الامن فيها وقمع نشاط العيارين ، فكتبوا الكتب اليهم بالانصراف عن البلد ، غير ان الاستهانة بلغت بالعيارين مبلغا كبيرا ، اذ خرجوا بانفسهم الى معسكر هؤلاء الجند يصيحون عليهم بالسب والشتم ، ثم وقع القتال بينهم حتى لبس الجند عدة الحرب وقرعوا الطبول ، وتطور الامر الى ان هاجم الجند محلة الكرخ ، اكبر اسواق بغداد التجارية ، و (وقعت النار) فاحترقت اسواق ومحال كثيرة ، ورافقتها اعمال نهب وسلب واسعة النطاق استمرت يومين ، ولابد من ملاحظة ان اعمال النهب هذه مارسها الجند والعامة والعيارون على حد سواء . وهو ما دفع الشريف المرتضى بالتقدم لمقابلة الخليفة ليطلعه على تفاصيل ما حدث ، مستجيرا به وطالبا فرض الامن في البلاد ، فخلع عليه الخليفة ، ثم شدد الاصفهلارية قبضتهم لضبط الاوضاع ، بعدها فرضت على الناس مصادرات واسعة[٩٩] اعقبها فرصة للهدوء النسبي حتى عام (٤٢٠هـ) لتنبعث انشطة العيارين مرة اخرى[١٠٠] .

في العام اللاحق تفاقم الامر كثيرا ، ففي مطلع شهر صفر منه كبس خمسون عيارا دار احد الاشخاص في محلة نهر الدجاج ، فقتلوه وقتلوا من كان معه ، ثم احرقوا الدار ، دون ان يجرؤ احد من الجيران على فعل شيء خوفا من اعمال الانتقام ، وكان هذا في الجانب الغربي ، اما في الجانب الشرقي من المدينة فقد استشرى فيه نشاط احد قادة العيارين يدعى (البرجمي) الذي تمكن من بلوغ بعض مخازن الامتعة والمؤن ، فنهب شيئا كثيرا منها ، وقد

---

(٩٨) ابن العماد ، شذرات ، ٣/٢٠٤ ؛ ابو الفدا ، المختصر ، ٤/٥٤ .
(٩٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٢٤-٢٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ١٢/٢٠ .
(١٠٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨/٤٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ٩/٣٩٣ .

لقي الناس منه اذى كبيرا[١٠١] . ثم توسع نشاط البرجمي في شهر شوال فقصد مع اتباعه درب علية ودرب الربيع وفتحوا ما وجدوه من مخازن وخانات سالبين ما قدروا على حمله ، كما كبسوا عددا من الدور واستولوا على ما فيها[١٠٢].

وفي عام (٤٢٢هـ) تفاقم الامر كثيرا مرة اخرى ، فقد كانت الفرصة للعيارين طيبة باشتعال نار الفتنة في شهر ربيع الاول ، فدخلوا البلد منتشرين في اسواقها ودروبها ، ومارسوا ما يحلو لهم من انشطة وفعاليات ، فكثرت (العملات) ليلا ونهارا ، ولما تجددت الفتنة في شهر شوال من العام نفسه تجدد نشاط العيارين ايضا[١٠٣] . فثار اهل الكرخ بهم بعد ان سرقوا من اصحاب الاكسية امتعة كثيرة ، ثم هربوا ، ورابط التجار في دكاكينهم ليلا ونهارا ، كما قاموا بمكاتبة (حاجب الحجاب) بان يتخذ ما يلزم لحماية الامن فاعيد ابو محمد النسوي الى منصب صاحب الشرطة ، اذ شددت الشرطة من اجراءاتها فقتلوا احد العيارين ونهبوا الدار التي استتر بها ، وبعد هدوء نسبي جدد العيارون نشاطهم ، حتى اضطر صاحب الشرطة الى الهرب ، فعادت الفتنة الى بغداد[١٠٤] . ثم تجرأ العيارون على دار السلطنة فنقبوها واخذوا منها قماشا[١٠٥].

وفي العام اللاحق ، وفي مطلع صفر منه ، ثار تجار الكرخ بالعيارين مرة اخرى ، فهربوا وطوردوا وكبست دورهم واخذت اسلحتهم ، وكتب التجار الى السلطات طالبين العون ، غير ان العيارين لم يلبثوا سوى أيام قليلة ثم عادوا لممارسة نشاطهم ، فكبسوا دار احد الوعاظ ، ليأخذوا ماله وما اودعه الناس

(١٠١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٤٧/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٢٨/١٢ .
(١٠٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٥٠/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣١/١٢ .
(١٠٣) ابن الاثير ، الكامل ، ٤١٨/٩ .
(١٠٤) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٥٤/٨ .
(١٠٥) الذهبي ، العبر ، ٢٤٥/٢ .

عنده من مال ، وعادوا الى كبس دور الناس حتى اصبح ذلك سلوكم الرئيس واختلط بهم في هذه الممارسة عدد من الاتراك وحواشيهم[١٠٦] . وقاد زعيمهم البرجمي عملية سطو كبيرة على احد الخانات ببغداد ، فنهب وقتل . كما فرض الضرائب على السفن الصاعدة والمنحدرة في دجلة ، وما استجد في عمله ، انه لم يكتف بنهب الدور ، بل كان يختم ذلك باحراق الدور التي نهبها . كل ذلك كان يجري والسلطات عاجزة ترقب الاوضاع وحسب[١٠٧] . ثم اعيد ابن النسوي الى الشرطة في بغداد ، فاجتهد في دروع العيارين وقمع نشاطهم[١٠٨] .

وفي عام (٤٢٤هـ) بلغ نشاط العيارين درجة خطيرة جدا من السلب والنهب وتحدي السلطات ، ولما تجرأ احد قادة الجند على اعتقال اربعة من العيارين قام (عقيدهم) باخذ اربعة من جند ذلك القائد ، ثم تقدم الى داره لمفاوضته في الامر ، الا ان هذا لم يجرؤ على الخروج من داره ، بل كلم العيار من داخلها اذ اتفق الطرفان على اطلاق ما احتجز من اتباع[١٠٩] . وفي اواخر شهر صفر كبس البرجمي درب ابي الربيع ووصل الى مخازن فيها اموال كثيرة جدا . وشاع بين الناس ان جماعة من الجند الاصفهلارية يتعاونون معه ، وهو أمر افزع الناس وايقنوا بتلف اموالهم فنقلوها الى دار الخليفة للامان الذي (تنعم) به ، ولاسيما بعد ان زاد عدد الجند الذين يحرسونها ، كما قام التجار بالمرابطة في اسواقهم ليلا ونهارا . وفي هذه الاجواء قتل صاحب الشرطة غيلة . فكان لابد لهذا الحدث ان يترك اثاره الواضحة في مزيد من التدهور في الاوضاع . فقد زادت العملات ، وكبست دار احد التجار التي اخذ منها عشرة الاف دينار . وبلغ الرعب بالناس انهم لم يكونوا يجرؤون على ذكر اسم البرجمي ، بل يذكر بوصفه القائد ابي علي ، احتراما وتعظيما لشأنه . وامام

(١٠٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٦٢/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٤/١٢ .
(١٠٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٦٦/٨ .
(١٠٨) نفسه ، ٦٦/٨–٦٧ .
(١٠٩) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٣٢/٩ .

هذه الاوضاع قرر قادة الاصفهلاوية الخروج بقوتهم العسكرية الى حيث يعسكر البرجمي واصحابه ، وكان المكان عبارة عن اجمة كبيرة من ماء وقصب امتدت خمسة فراسخ (= ٣٠ كغم) وفي وسطها تل اتخذه قائدهم معقلا ومنزلا له ، فحوصر المكان الا ان البرجمي خرج اليهم (كذا) وخاطبهم بقوله : من العجب خروجكم الي ، وانا عندكم في كل ليلة ، فان شئتم ان ترجعوا وانا اتيكم ، وان شئتم الدخول الي فافعلوا ، غير ان جماعة من الاصفهلارية راسلوه سرا وشدوا من امره ، فعاد الجند دون فعل شيء(١١٠).

وفي جمادى الاولى من العام نفسه (٤٢٤هـ) زادت عملات العيارين وكبساتهم للدور مرة اخرى ، وعمت الفوضى مناطق واسعة من بغداد ، فاحترقت الاسواق ونهب درب عون واخذت ابوابه ، ونهب درب القراطيس ايضا والفروع التي تؤدي اليه(١١١) . وكان الامر يزداد تفاقما في كل يوم ، ولم تنفع اية اجراءات لردع العيارين ، بل إن صاحب الشرطة اضطر نفسه الى الاختفاء. وبلغ الامر حدا خطيرا في اواخر شهر شوال ، مما حدا العامة على الثورة في جامع الرصافة ومنعوا الخطبة وجموا الخطيب في يوم الجمعة ، وقالوا : اما ان تخطب للبرجمي ، والا فلا خطبة لخليفة او لملك ، عندها اضطرت السلطات الى تشديد الاجراءات وعين ابو الغنائم بن علي على المعونة ، فقتل جماعة من العيارين ، فهدأت الاحوال نسبيا(١١٢) . لقد بلغ من سخرية الاوضاع ان احد (وجوه القادة) الاتراك اراد ان يختن ابنه فلم يقدر على ذلك حتى اهدى للبرجمي هدايا قيمة ، طالبا منه الذمة والحماية على داره في اثناء الحفل ، كل هذا التدهور في الامن وبغداد فيها عشرون الفا من العسكر والجند(١١٣).

---

(١١٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٢/٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان : ٢٦٣
(١١١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٢/٨ .
(١١٢) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٥/٨ .
(١١٣) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٢٦٣ .

ولم يكن عام (٤٢٥هـ) اقل مأساوية من الذي قبله ، فقد وقعت الفتنة ببغداد التي كان من طرائفها انتقال عدواها الى العيارين انفسهم ، فتحزب كل فريق منهم الى طائفته ومذهبه[١١٤] . اذ كمل عيارو الكرخ مجانيق مذهبة استصحبوها معهم في زيارة المشهد الحائري في منتصف شعبان ، فقام اثنان من وجوه العيارين ، كانا قد تابا وعملا في دار الخلافة ، بصنع مجانيق مماثلة صحبوها معهم برفقة عدد من اتباعهم السابقين من العيارين الى قبر مصعب بن الزبير في الاول من رمضان[١١٥] . وكل ذلك كان من الامور التي ابتدعت في حينه ، وكل كان يريد كيد الطرف الآخر ، فعاد العيارون الى الانتشار ومواصلة كبساتهم بالليل والنهار ، باسطين سطوتهم على كل شيء ، من ذلك ان البرجمي اتفق مع عامل المآصر الاعلى بقطيعة الرقيق ، بان يعطيه هذا في كل شهر عشرة دنانير من وارد المآصر وان يسمح بمرور سميريتين — وهي من سفن النقل — بغير اعتراض ، مقابل تعهد البرجمي بتوفير الحماية لهذه المآصر . ثم عاث هذا فسادا في الجانب الشرقي ، ودخل خانا يدعى بخان القوارير ، ونهب منه شيئا كثيرا ، ثم حاول بسط نفوذه على الجانب الغربي ايضا ، الا انه لم يفلح في ذلك كما يبدو . بسبب قيام الناس بحراسة محالهم ودروبهم[١١٦] . في حين نجح في كبس دار مجاورة لدار الوزير[١١٧] .

وبلغت الاستهانة حدا ان طلب البرجمي ان يتولى هو منصب صاحب المعونة وحفظ الامن ، فاجيب الى ذلك فـ « وجدت (أي حصلت) فضائح لم يدون مثلها » ثم ادخل العيارون ايديهم في « اعمال السلطان وجبوا البلد » كما « عملوا لهم اعلاما مذهبة وتسموا بالقواد وغلبوا بغداد من الجانبين ، وبذل (معتمد الدولة) للبرجمي مالا كثيرا »[١١٨] . وعند هذا الحد كان العيارون

---

(١١٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٣٦/١٢ .
(١١٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٨/٨ .
(١١٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٦/٨ـ٧٧ .
(١١٧) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٣٨/٩ .
(١١٨) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٤ .

قد ملكوا الامور فعلا . واصبحوا هم السادة والحكام ولم يكن امامهم سوى اعلان سقوط السلطة البويهية واعلان حكومة اخرى غيرها و (تحرير) الخلافة من تغلب هؤلاء . الا ان شيئا من ذلك لم يحصل ، لان هؤلاء لم يكونوا يمثلون اية مقاومة للتغلب البويهي ، وليس لهم ادنى تصور سياسي عن الدولة والسلطة والحكم ، وجل ما يعنيهم ان تكون السلطة في اضعف احوالها ، فذلك ما يمثل المناخ الامثل لممارسة نشاطاتهم في السطو والسلب والنهب ، وهذا يفسر تصديهم في بعض الاحيان لرجال الشرطة والسلطة ، لان هؤلاء خصومهم الحقيقيون في انشطتهم ، وقوة هؤلاء تعني الحد من نشاطاتهم في السرقة اللصوصية في حين ان ضعف اجهزة الشرطة واستهدافها يتيح لهم حرية في فعالياتهم وانشطتهم ، ان العيارين لم يفكروا قط في تغيير شيء من معالم السلطة السياسية ، لانهم لا يدركون من ذلك شيئا لبساطة عقولهم ومحدودية ثقافتهم وجهلهم في آليات بناء الافكار وتوجيهها الوجهة الصحيحة غير السلب والنهب .

اما نهاية البرجمي هذا ، فكانت قاسية ، اذ قبض عليه ثم جرى تغريقه في روايتين مختلفتين ، نسبت الاولى لقرواش القيام بهذا العمل ، اذ جاءه البرجمي ملتمسا منه اطلاق احد الاشخاص الذين قبض عليهم ، لمودة كانت بينهما ، غير أن قرواشا لم يعر ذلك ادنى رعاية ، بل انه قبض على البرجمي الذي اغراه بالمال الكثير ، فلم يغن عنه ذلك شيئا ، فغرقه[119] . وفي رواية اخرى ان (معتمد الدولة) نجح في القبض عليه في منتصف رمضان من عام (٤٢٥هـ) فغرقه في النهر رافضا الرشوة التي عرضها عليه ان هو اطلقه[120] . بعد ذلك جرت محاولات لاستصلاح شأن العيارين بالتوبة والعمل في دار الخلافة او ان يتركوا البلد ، ومنحوا لذلك مهلة امدها ثلاثة ايام ، فخرج معظمهم من

---

(١١٩) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٣٨/٩ .

(١٢٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٩/٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٤ .

بغداد ، لكنهم لم يلبثوا الا يسيرا ثم عادوا من جديد ، فكثر الفساد ايضا ، حتى إن صاحب الشرطة اضطر للاستغناء من منصبه خوفا على نفسه من بطشهم ولعجزه عن فعل شيء ازاهم[١٢١].

وفي عام (٤٢٦هـ) تجددت الفوضى في بغداد ، وواصل العيارون عملاتهم ليلا ونهارا « ولا مانع لهم لان الجند يحمونهم على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم »[١٢٢] . واستشرى امرهم فـ (فتكوا وقتلوا) فقتل صاحب الشرطة منهم رجلا ، فقتلوا اثنين ، ثم احتشدوا لمقاتلة صاحب الشرطة نفسه واستعد هو لقتالهم ، عندها لجأ العيارون الى الاحتماء بدور الجند الاتراك يقيمون فيها نهارا ويخرجون منها ليلا لممارسة نشاطاتهم . ثم كتبوا رقاعا والقوها في الطرقات يطلبون فيها اقصاء ابي الغنائم عن منصبه كصاحب شرطة مقابل حفظهم البلد ، فعم الفساد ومنع السقاؤون من حمل الماء الى بعض المحال واصيبت السلطات بخذلان كبير فسيطر العيارون على بغداد[١٢٣] . و « ماكوا الجانبين ولم يبق للخليفة ولا لجلال الدولة حكم »[١٢٤] . وهنا ظهر منهم كل سوء في الخلق فـ « كاشفو بالافطار في رمضان وشرب الخمر وارتكاب الفروج » كما اشعلوا الحرائق في الاسواق والمحلات مع اعمال سلب ونهب متواصلة[١٢٥] . وكأن السلطات اسلمت الامر والقيادة لهؤلاء فعليا يعيثون في بغداد فسادا دون وازع او رادع . ليكون ذلك الفراغ السياسي والامني الثاني الذي ظهر في بغداد ولم يتمكن احد من انتزاع المبادرة واعلان سلطة سياسية حقيقية تمسك الامور بقوة وتنقذ البلاد من الفساد المستشري ، ويعود ذلك ببساطة الى انه لم تكن هناك اية قوة حقيقية تتولى هذه المسؤولية اخاو

---

(١٢١) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٧٩/٨ .

(١٢٢) ابن الاثير ، الكامل ، ٤٤٠/٩ .

(١٢٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨٢/٨ .

(١٢٤) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٩ .

(١٢٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨٣/٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ٣٦٤

بغداد من اية جهة سياسية قادرة على استغلال مثل هذه الفرصة . ولم يكن سبات الخليفة قد انقضى اجله بعد ، فكان اضعف من ان ينفخ الروح مرة اخرى في مؤسسة الخلافة وكان العجز واضحا واشهر من ان يشار اليه .

وفي المحرم من عام (٤٢٧هـ) كبس العيارون دار احد القادة الاتراك (بلور بك التركي) في محلة باب خراسان واخذوا ما فيها ، بعدها بثلاثة اشهر هاجموا دار صاحب الشرطة (ابن النسوي) واحرقوها ، وكانوا قرابة المئة رجل ، ثم فتحوا احد الخانات ونهبوها على مسمع ومرآى من الناس ، ولا احد يجرؤ على تحريك ساكن[١٢٦] . وفي جمادى الآخرة من العام اللاحق هاجم العيارون احد السجون بالجانب الشرقي ، واخذوا منه رجالا معينين ثم قتلوا سبعة عشر من رجال الشرطة[١٢٧] . كما تمادوا في اعمالهم التي استهدفت بسطاء الناس ايضا مثل السقائين ، اذ سلبوهم بغالهم ، واخذا من القصارين ثيابهم[١٢٨] .

هـ ــ المرحلة الاخيرة من نشاط العيارين :

يبدو ان الاجواء ببغداد تمتعت ببعض الاستقرار اكثر من عشر سنوات اذ خفت نشاط هؤلاء بشكل مفاجيء وهم في ذروة فعالياتهم وسطوتهم ونفوذهم ، وليس في المصادر ما يفسر سبب هذا الهدوء ليظهر من جديد في عام (٤٤١هـ) بشكل لافت للنظر من جديد . فاشتدت شوكتهم في الجانب الغربي من بغداد ، حتى اضطر كثير من الناس الى ترك مساكنهم والانتقال الى القسم الشمالي من الجانب الغربي (منطقة الحريم) فاشتروا الخرابات وعمروها[١٢٩] . ونجح العيارون في عام (٤٤٣هـ) في كبس صاحب الشرطة ابي محمد بن النسوي

---

(١٢٦) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٨٨/٨ ؛ الذهبي ، العبر ، ٢٥٥/٢ .
(١٢٧) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٩١/٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٤٠/١٢ .
(١٢٨) ابن الجوزي ، المنتظم ، ٩١/٨ .
(١٢٩) نفسه ، ١٤٢/٨ .

نفسه واصابوه بجروح عديدة[١٣٠] . وفي العام اللاحق اشتدت الفتنة في بغداد ، فظهر العيارون مجددا ، فنهبوا الاسواق واخذوا الاموال ، وكان على رأسهم زعيمان هما الطقطقي والزيبق[١٣١].

تراجعت نشاطاتهم بعد ذلك الى حد كبير ، مع ان السلطة كانت قد بلغت ادنى ضعف لها حيث سقطت في عام (٤٤٧هـ) بمجيء السلاجقة وسيطرتهم على بغداد ، ويبدو ان نشاط العيارين تراجع من نشاطات كبيرة لافتة للنظر الى نشاطات صغيرة يقوم بها الافراد بصفاتهم الفردية معتمدين الحيلة والدهاء والمكر ، بدلا من القوة الكبيرة المكونة من رجال كثيرين ، وذلك ما يمكن استنتاجه من اسم الزيبق نفسه الذي يوحي بالعجز عن الامساك به ، وهو أمر دل على خفة في الحركة وسرعة في النشاط ، وهذا من سمات النشاط الفردي لا الجمعي ، عليه فان اختفاء اخبار العيارين في هذه المرحلة لا يعني انعدامها كليا بل تحول الى انشطة فردية صغيرة .

النتائج وتحليل المعطيات :

لم تذهب اراء الباحثين في تاريخ حركة العيارين والشطار ابعد من القراءة الظاهرية لوقائع تاريخها ، فوصفت بانها ثورة شعبية رمت الى التصدي للبويهيين والتصدي لاصحاب الاموال ، غير ان تحليل معطيات تاريخ هذه الحركة والحيثيات التي نشأت في ظلها تشير الى اتجاهات بعيدة عما ذهب اليه هؤلاء الباحثون .

فقد نشأت هذه الحركة منذ اواسط القرن الثاني للهجرة واستمرت عقودا طويلة من الزمن بوصفها رد فعل طبيعي على الاوضاع الاقتصادية السيئة وتفشي الفقر في طبقة العامة واتساع الهوة بين الفقراء والاغنياء ، حتى لم يبق ثمة امل أمام المعدمين بامكانية تحسين اوضاعهم المعيشية ، فعانى هؤلاء حالة احباط

(١٣٠) نفسه ، ١٥١/٨ .
(١٣١) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٩١/٩ .

شديد وعجز كبير ، وكان لابد ان تتولد عنه معطيات خطيرة من القوة والعنف والسعي للحصول على الاموال بغض النظر عن الطريقة والوسيلة . لهذا تجدهم قد وضعوا نصب اعينهم ثروات الاغنياء ولاسيما التجار منهم . ان هذه الحيثيات التي وقفت وراء نشوء هذه الحركة استمرت طوال وجودها ، فلم تشهد الاوضاع الاقتصادية اي تحسن يمس اوضاع هؤلاء ، فكان الابد للحركة من ان تستمر وتشتد كلما ازدادات الاوضاع سوءا .

عليه ، ومن الناحية البدئية ، فانه لم تكن هناك اية حيثيات سياسية وقفت وراء النشأة الاولى لهذه الحركة ، اذ لم يكن في الاوضاع السياسية ما يدفع هؤلاء للتمرد عليها ، بيد ان ظهور الصراع بين الامين والمأمون ثم بين المستعين والقادة الاتراك ، خلق مناخا سياسيا عاما في بغداد كان جديدا في معالمه . فقد كان الخليفة الشرعي في خطر ، وبرز الخليفة في كلتا الحالتين مدافعا عن حقه فقادة الجيش والعامة ، التي استجابت لدواعي الخليفة في الدفاع عن حقه هذا ، وهكذا انخرط العيارون في الصراع مناصرين لخليفتهم ولمدينتهم التي كان الخطر محدقا بها .

اما بشأن الخلافة التي نحن بصددها والمتعلقة بموقف العيارين ازاء السلطة البويهية وطبيعة العلاقة المترتبة بينهما ، فيحسن بنا ان نأخذ المعالم الاتية بنظر الاعتبار :

- ان مفهوم (المقاومة) الشعبية المسلحة ، هو من المفاهيم الحديثة تبلورت في ضوء حركة الاستعمار التي اجتاحت العالم بعد حركة الاستكشافات الجغرافية ، ومن ثم فان هذا المفهوم كان غائبا عن الساحة السياسية والفكرية ، وبما ان المفاهيم هي التي ترسم حدود حركة الانسان واتجاهاتها ، لذا غياب مفهوم ما عن الساحة الفكرية يعني استحالة تفسير اي سلوك او ظاهرة سياسية من ضوئه ، ولاسيما مع وجود مفاهيم اخرى كان لها دورها السياسي والفكري في حينه .

- وفي هذا الاطار فان مما يجب ان يوضع في الحسبان عند مناقشة اية ظاهرة اجتماعية او سياسية هو تعرّف المناخ الفكري السائد الذي نشأت الظاهرة في اطاره العام . فقد كانت الشريعة الاسلامية والافكار الاسلامية هما المناخ الذي تحركت في ظله معطيات تاريخنا الاسلامي . وهذا المناخ الفكري لم ينظر الى البويهيين بوصفهم اجانب او غزاة ، بل هم مسلمون متغلبون ، تغلبوا على السلطة ، والمتغلب في ضوء المعالم الشرعية له كلمة نافذة ، ولاسيما ان البويهيين ابقوا على الخليفة ، وان كان ذلك اسميا ، ولهذا لم نجد ايا من الفقهاء او العلماء افتى بوجوب الخروج على هؤلاء بالسيف او التصدي لهم بالقوة ، ليس لان هؤلاء المتغلبين كانوا على صواب تام وحازوا الشرعية التامة ، ولكن لم يكن الخروج عليهم بالسيف لازما في حينه ، وفي مثل حالتهم يكون التصدي لهم بوسائل اخرى غير السيف ، من ذلك المقاطعة وعدم معاملتهم ، ان الخلفاء العباسيين انفسهم لم يقودوا مقاومة حقيقية لهؤلاء في بغداد على غرار ما فعله الامين والمستعين ، لهذا لم يكن هناك ما يعبىء العامة ويحشدها نحو التصدي للبويهيين . والعامة ليست هي التي تبني الافكار او تقود الجماعات بل العامة تكون عادة منقادة ، فلما لم يكن هناك من يقودها ، لذا لم يكن منتظرا منها ان تفعل ما هو خارج قدرتها . وقد تبين من خلال العرض السابق في سياق البحث ان سلطة البويهيين بلغت درجة كبيرة من الهشاشة والضعف الا ان ذلك قابله فراغ سياسي من الجانب الاخر ، فلم تكن ثمة قوة تتولى قيادة الامور والاستيلاء عليها والخليفة نفسه قد بلغ من الضعف ما جعله عاجزا عن القيام بفعل حقيقي وجاد ضد البويهيين .

- ان هدف تغيير السلطة لم يكن ظاهرا ولا فاعلا على اي مستوى فكري او سياسي . وغياب الهدف يعني غياب القوة المحركة والدافعة نحو الهدف نفسه ، فمن العقم ان توصف افعال العيارين بانها مقاومة مع غياب هدف،

تغيير السلطة من الاذهان . ومجرد الموافقة في الشكل لا يعني وجود مثل هذا الهدف . فتصدي العيارين للشرطة وبعض رجال السلطة لا يعني ان ذلك يمثل مقاومة سياسية . بل جاء تصديهم لهم لكونهم المعوق لانشطتهم في السلب والنهب . لهذا كان تصديهم لهم في الحقيقة على قدر عرقلة هؤلاء لفعاليتهم وانشطتهم هذه . لذا لا تعد توصيفات من قبيل المقاومة والثورة الشعبية سوى عماية اسقاط لمفاهيم حديثة على وقائع تاريخية لا تمت لهذه المفاهيم بصلة .

- لقد كشفت حركة العيارين والشطار عن عجز الدولة والمجتمع عن معالجة الاوضاع الاقتصادية المتدهورة ، وهو أمر كان لابد ان يترتب عليه انبثاق ظواهر خطيرة شكلت ردود فعل سلبية على هذا العجز والاحباط الذي اصاب القطاعات الفقيرة من المجتمع ، اذ أسفرت هذه الاوضاع عن حركة العيارين والشطار بكل تداعياتها السلبية والايجابية .

المصادر والمراجع :

- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ (بيروت : د/ت) .
- ان تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب (القاهرة : د/ت) .
- ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم (بغداد : ١٩٩٠)
  تلبيس ابليس (القاهرة : د/ت) .
  الاذكياء ، تحقيق : محمد عبدالله الصديق (القاهرة : د/ت)
- ابن العماد ، شذرات الذهب في خبر من ذهب (بيروت : د/ت) .
- ابن الكازروني ، مختصر التاريخ ، تحقيق : مصطفى جواد (بغداد : ١٩٧٠)
- ابن كثير : البداية والنهاية (بيروت : ١٩٧٧) .
- ابن مسكويه ، تجارب الامم ، تحقيق : امدروز (مصر : ١٩١٦)
- او الفدا ، المختصر في اخبار البشر (بيروت : د/ت)
- د. بدري محمد فهد ، العامة في بغداد في القرن الخامس الهجري (بغداد : ١٩٧٦)

- التنوخي ، الفرج بعد الشدة (القاهرة : ١٩٠٤)
نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة ، تحقيق : عبود الشالجي
- التوحيدي ، الامتاع والمؤانسة ، تحقيق : احمد امين واحمد الزين (بيروت : د/ت)
رسالة الصداقة والصديق : تحقيق : ابراهيم الكيلاني (دمشق : ١٩٦٤)
المقابسات ، تحقيق : حسن السندربي (القاهرة : ١٩٢٩)
- الذهبي ، تاريخ الاسلام ، تحقيق : عمر عبدالسلام تدمري (بيروت:١٩٨٩)
العبر في خبر من غبر ، تحقيق : جنان خليل (بغداد : ١٩٩٠)
- الصابي ، تاريخ هلال بن المحسن ، تحقيق : امدروز ومرجليوث (القاهرة : ١٩١٩)
- طالب جاسم حسن ، المقاومة العربية للتسلط البويهي في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بغداد : ١٩٦٨)
- الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد ابي الفضل ابراهيم (بيروت : ٢/ت)
- د. عبدالعزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري (بيروت : ١٩٩٩)
- د. عبدالعزيز الدوري ، دراسات في العصور العباسية المتأخرة (بغداد : د/ت)
- د. فاروق عمر فوزي ، النهوض العربي في العراق (بغداد : ١٩٨٩)
- فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان ، ترجمة : د. كامل العسلي (عمان : د/ت)
- القشيري ، الرسالة القشيرية (بيروت : د/ت)
- محمد رجب النجار ، الشطار والعيارون (الكويت : ١٩٨٩)
- المسعودي ، مروج الذهب (بيروت : ١٩٨٣)
- المقدسي : احسن التقاسيم ، تحقيق : ذي خوية (ليدن : ١٩٠٦)
- د. موفق سالم نوري ، العامة والسلطة في بغداد (اربد : ٢٠٠٣)
- الهمذاني ، تكملة تاريخ الطبري ، ضمن الجزء الحادي عشر من تاريخ الرسل والملوك للطبري .



مجلة المجمع العلمي

الجزء الثالث ـ المجلد الواحد والخمسون
بغداد
١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م

الفهـرس